(16)
II Rois; XVII, 5-6; Luc H. Grollenberg; Atlas de la bible, Trad Beaupère (René), édit, Elsevier, Paris (S.D.); p. 90.

(17)
Parrot (André), op.cit, P.66; Garelli (Paul) Nikiprowetzky. V.; Le proche orient asiatique; (P.U.F) Paris 1974, p.261.

* كوثه: مدينة بابلية.

** حماة: في سوريا الوسطى.

(18) سفر الملوك الثاني، 24 ـ 27؛
Nath (Martin); Histoire d'Israel, édit Payot, Paris 1954, p.270.

(19) Nath (Martin); op.cit; p.267.

(20) Parrot (André); op.cit; p.66.

(21) Ibid; p.65

حملة حنبعل على إيطاليا

د. محمد الهادي حارش

تعد حملة حنبعل على إيطاليا أهم أطوار الحرب البونية الثانية (218 ـ 201 ق.م) التي تعد بدورها من أقسى مراحل الصراع المسلح بين قرطاجة وروما، هذا الصراع الذي بدأ باحتلال القرطاجيين لمدينة مسينا في صقلية سنة 264ق م، وما أعقبه من أحداث الحرب البونية الأولى (264 ـ 241 ق.م)، وينتهي بتهديم قرطاجة في نهاية الحرب البونية الثالثة (149 ـ 146 ق.م) على يد سكيبيو إيميليانوس.

كان إحتلال مدينة ساغنتة (1) Sangonte سنة 219 ق م من طرف حنبعل، بعد حصار دام ثمانية أشهر بمثابة «الشرارة» التي أشعلت فتيل الحرب البونية الثانية، والواقع أن هذا الإحتلال جاء بعد سلسلة من الفتوحات التي قام بها حنبعل في إسبانيا، توغل على إثرها حتى بلغ الألفادا وهزم الفاكيين وأفتك منهم سلامنكا Salamanque، كما هزم جيش «الكرابطة» على ضفة التاج، وهي الإنتصارات التي جعلت رجال المال الإيطاليين يتحيرون من إستيلاء حنبعل على مناجم الفضة، فكانوا بذلك وراء إشهار روما الحرب سنة 218ق م، بعد رفض الشيوخ البونيفيين وضع حدٍ لتصرفات حنبعل (2)

بعد عودة حنبعل إلى قرطاجنة، علم بإعلان روما الحرب أواخر ربيع 218 ـ ربما خلال شهر مايو ـ فقرر مهاجمة روما في عقر دارها، وكان عليه أن يختار بين سلوك الطريق البري أو ركوب البحر. فاختار الطريق البري، تجنبا ـ ربما ـ لمخاطر حملة بحرية، وآملاً في التحالف مع البويان (3) Boiens، الذين ثاروا ضد روما بعد تأسيسها لمستعمرتي «بلاكنتيا» و«كريمون» (4).

اجتاز حنبعل نهر الإيبرو على رأس قوات معتبرة من الأفارقة والإسبان، تعد على ما يذكر بوليبيوس[5] تسعون ألفاً (90.000) من المشاة واثنا عشر ألفاً (12.000) من الفرسان، وسبع وثلاثين (37) فيلا.

بعد اجتيازه للايبرو ـ الحد الفاصل بين الرومان والقرطاجيين ـ أخضع الشعوب القاطنة بين المجرى الأسفل لهذا النهر وجبال البرانس، واجتاز هذه الجبال الأخيرة بعد أن ترك حنون Hannon للحفاظ عن المنطقة رفقة عشرة آلاف (10.000) من المشاة وألف (1.000) من الفرسان[6] . وسرح عددا مماثلا، واجتاز جبال البرانس بما تبقى له من الجيش والذي يقدر حسب بوليبيوس بـ : خمسين ألفاً (50.000) من المشاة وتسعة آلاف (9.000) من الفرسان[7].

لم يصطدم حنبعل بمقاومة تذكر في بلاد غالة، حيث اجتاز نهر الرون Rhône في شهر أغسطس بعد مناوشات خفيفة، خلال ذلك، وصل بوبليوس كورنيليوس سكيبيو (P. Cornelius Scipio) عن طريق البحر، ونزل على المصب الشرقي لهذا النهر، وعلم أن حنبعل قد دخل بلاد غالة، وكان عليه أن يوقفه هنا، لكن حنبعل تحاشى الاشتباك معه في معركة، تجنباً لإضاعة الوقت، ذلك أن الخريف على الأبواب، ولا يمكن اجتياز جبال الألب في ذلك الفصل، بسبب تراكم الثلوج[8]، وتوغل نحو الشمال، متبعاً الضفة اليسرى للنهر في تجاه منبعه إلى حيث يلتقي هذا النهر بنهر الإيزير (Isère) ، بينما عاد سكيبيو إلى الساحل بعد أن رأى أنه ليس من الحكمة اللحاق به، فسلم الفرق لشقيقه كينيوس الذي أمره بالذهاب بها إلى إسبانيا، وعاد هو إلى بيزا (Pise) من حيث سيلحق بسرعة بقبل ـ الألب (Cisalpine) لأخذ قيادة الفرقتين اللتين أرسلتا ضد الغاليين الثائرين[9].

اجتاز حنبعل جبال الألب عبر فج سان برنار الأصفر على ما يرى غالبية المؤرخين[10]، ولم يكن اجتيازه هذا سهلاً، إذ تعرض لمقاومة سكان الألب الجبليين، أضف إلى ذلك بداية تساقط الثلوج، فلم يمر إلا بعد صعوبات جمة ومعاناة كبيرة، وهو ما يفسر فقدانه لأزيد من نصف قواته[11]، إذ لم يصل معه إلى البو (Pô) غير عشرين ألفاً (20000) من المشاة وستة آلاف (6000) من الفرسان وواحد وعشرين (21) فيلاً[12]، بعد سير خمسة أشهر، منها خمسة عشر يوما قضاها في تلك الجبال[13].

اعترض سكيبيو طريق حنبعل على الضفة اليسرى «للبو» إلى الغرب من تيسينو (Tecino)، لكن الفرسان النوميديين دحروه على ما يذكر بوليبيوس[14]، فتراجع نحو بلاكسنتيا (Placentia) بعد أن تعرض لجروح خطيرة.

قدوم سبرونيوس (Sempronius) على رأس القوات المقرر إرسالها إلى إفريقيا[15]، لم يزد وضع الرومان غير تدهور، إذ قرر الإشتباك مع جيوش حنبعل، رغم رأي زميله ـ سكيبيو ـ المخالف[16]، فكانت معركة تربيه (Trebie) التي كانت الهزيمة فيها حليفة الرومان، رغم تساوي القوات[17]، فكانت هذه الهزيمة التي فقد فيها سمبرونيوس ثلاثة أرباع قواته[18] عاملا غذى ثورة الغاليين الذين إنضموا بأعداد كبيرة إلى جيوش حنبعل[19] الذي أصبح سيد غالة قبل الألب (Cisalpine)[20]، حيث بقي حتى نهاية فصل المطر.

دخل حنبعل الشبه الجزيرة الإيطالية في فصل الربيع، وكان في انتظاره جيشين، أحدهما في أريمينوم Ariminium على ضفاف الادرياتيك بقيادة القنصل (Servilius) والآخـــــــر في أريتيوم (Arretium) باتروريا بقيادة القنصل فلامينيوس (Flaminius)، بهدف سد الطريقين المؤديين إلى روما أمام حنبعل[21].

قرر حنبعل الدخول إلى أتروريا (Etrurie) ، مروراً على جبال الابنين (Apennin)، رغم صعوبة المسلك، إذ عانى وجيوشه كثيراً من المستنقعات التي أحدثتها فيضانات نهر أرنو (Arno)، ولم يصل فيزول (Fiesole) إلا بعد أربعة أيام من السير ومعاناة كبيرة، كما أصيب برمد فقد على أثره عينه اليمنى على ما يذكر كورنيليوس نيبوس[22].

من فيزول واصل سيره عبر سهول «توسكانه» (Toscane) التي نهبها على أمل أن يدفع ذلك فلامينيوس للحاق به، وهو ما حدث، فلم ينتظر هذا الأخير وصول قوات زميله (سرفيليوس) من «أريمنيوم» (Ariminium)، فتحرك من أريتيوم (Arretium) للعودة جنوبا، وفي الوقت الذي كان يتقدم فيه عبر ممر ضيق بين بحيرة ترازيمان le Lac trasimène والهضاب المحاذية لها على الشمال الشرقي، طوقه حنبعل وهاجمه من كل الجهات، فهلك في المعركة مع خمسة عشر ألفاً (15.000) من رجاله[23]، وأسر عددا مماثلا[24] (21 جوان 217). واحتفظ حنبعل بالرومان وخلى

سبيل الحلفاء متظاهراً بذلك أنه لم يأت محارباً لهم، وإنما جاءهم محرراً[25].

بعد السيطرة على إقليم إتروريا، كان يعتقد أن حنبعل سيتوجه في الحال نحو «روما»، التي بدأت تهيأ للدفاع، وعينت كنتوس فابيوس مكسيموس (Q. Fabius Maximus)ديكتاتوراً، لكن حنبعل أدرك أن أسوار المدينة تضعها في مأمن، ولحصارها لم يكن معه الجيش الكافي وفرسانه الذين يشكلون قوته الأساسية لا يخدمونه في هذا الحصار، وكذا نقص أدوات الحصار وانعدام الأسطول الذي يراقب منفذ التيبر ويعزل الرومان من جهة البحر، دفعه إلى التوجه شرقاً حتى وصل بيكينوم(Picenum)على الأدرياتيك، حيث بقي بعض الوقت ممكناً قواته من بعض الراحة[26].

تعيين مكسيموس ديكتاتوراً لم يغير في الوضع، إذ رغم تعقبه لحنبعل. كان يرفض الإشتباك معه في معركة فاصلة، ولذا تلاعب به هذا الأخير وقصد إحباط أسلوب مكسيموس «المتأني»[27] جال بشمال أبوليا Apulie كما عبر السامنيوم Samnium وتوغل غرب كمبانيا Campanie، وأراد بإنتهاجه سياسة النهب ، إجبار مكسيموس على معركة حاسمة، وإن لم ينجح في ذلك، فصل عن روما حلفائها الذين تبدو بذلك عاجزة عن الدفاع عنهم،وقد تمكن فعلاً من جمع غنائم كثيرة وسلب ممتلكات حلفاء روما هؤلاء على مرأى من جيوشها، لكن مكسيموس ظل مخلصا لتكتيكه ولم يبال بشكاوي الفلاحين الذي خربت أملاكهم، ولا بإنتقادات الذين عدّوا حذره جبناً[28].

قضى حنبعل شتاء 217 ـ 216ق م، والربيع الموالي في أبوليا في بلاد القمح والمراعي[29] ، ومع ذلك كان في وضعية مهزوزة، لا انتصاراته في غالة قبل الألب وفي أتروريا ولا نهبه دفع شعوب إيطاليا إلى التخلي عن روما، الغاليون لم يقدموا كل الخدمات التي كان ينتظرها منهم، خاصة أنه فقد الإتصال بحوض البو وبإسبانيا[30].

لكن الرومان الذين ملّوا من سياسة مكسيموس سيتكفلون بإخراجه من هذه الورطة، بتعيين لوكيوس إيمليوس باولوس (Licius Aemilius Paulus) وكايوس ترنتيوس فارو(C. Terentius Varro) قنصلين لسنة 216 ق م، ودفعها للبحث عن المعركة التي جرّت في سهل أوفيدوس Aufide قرب كانة في الثاني (02) أغسطس 216ق م[31].

كان الجيش الروماني يضم ثمانين ألفاً (80.000) من المشاة وستة آلاف (6.000) فارس، مقابل أربعين ألفاً (40.000) من المشاة وعشرة آلاف (10.000) فارس في صفوف حنبعل، قد يكون هذا التفوق العددي هو الذي أغرى فارو ودفعه إلى الإسراع في دخول المعركة التي طوق فيها حنبعل القوات الرومانية وأبادها عن آخرها[32]؛ في وقت لم يفقد فيه غير خمسة آلاف وسبعمائة (5700) مقاتل أكثرهم من الغاليين على ما يذكر بوليبيوس[33]

تساءل كثير من المؤرخين عن الدواعي التي حالت دون استغلال حنبعل انتصار«كانة» في الزحف على «روما»، فكان حتى أصحاب حنبعل يرون أن الوقت كان مناسبا على ما يذكر أحمد صفر، الذي نقل لنا حديثا بين حنبعل ومهر بعل في هذار الإطار[34]. لكن المحللين يرون أن حنبعل لم يكن يتوفر على الإمكانيات اللازمة لحصار روما. ولهذا الغرض سعى للحصول على الدعم من قرطاجة[35].

جلب انتصار «كانة» بعض الحلفاء لحنبعل على رأسهم مدينة كابوا Capoue ، التي جعلها قاعدة أعماله لأزيد من خمسة (05) أعوام. وكذا كثير من مدن وسط وجنوبي إيطاليا التي انضم سكانها إلى حنبعل[36]، مثل سكان البريتيوم Britium وأبوليه Apulie ومعظم السمنتيين Samnites واللوقانيين Lucaniens ، بينما استعصت عليه مدن: نولةNola ونابولي Naples وكوماي Cumae.

كما سمح أيضاً انتصار «كانة» لحنبعل بعد وفاة هيرون (Hieror) من مضاعفة بسط نفوذه في صقلية سنة 215 ق.م[37].

لكن هذه الإنتصارات سرعان ما تنهار إذ رغم سكوت حنبعل في إيطاليا نحوا من خمسة عشر عاما بعد «كانة» إلا أن عدم تلقيه أي نجدة من قرطاجة من جهة وتماطل«فيليب» ملك مقدونيا من جهة أخرى حال دون مزيد من الإنتصارات، بل أكثر من ذلك بدأت قواه تنهار إبتداء من سنة 212 التي فقد فيها سرقوسة[38]، التي تلاها سقوط «كابوا» سنة 211، بعد حصار طويل عجز حنبعل خلاله عن تقديم العون لها رغم توجهه نحو روما لكن بدون جدوى[39]، دخل الرومان مدينة «اقريجنوم» قبل دخول مدينة ترنتة (Tarente) سنة 209 ق م[40].

في الوقت الذي توالت فيه هذه الأحداث في إيطاليا، كانت الأوضاع في إسبانيا تسير لغير صالح القرطاجيين، فإضافة إلى الانتصارات التي حققها بوبليوس

كورنيليوس الذي استولى على قرطاجة سنة 209 والتي كانت وراء طلب قرطاجة من ماقون (Magon) البقاء في إسبانيا نجد أيضا سردينيا التي أظهرت استعدادها للتخلص من الرومان، إن وجدت المساعدة وبالتالي طلب من ماقون تحضير هذه المساعدات وهو ما حال دون نجدة حنبعل[41] الذي وجد نفسه معزولاً في الجنوب الغربي لشبه الجزيرة الإيطالية[42].

- إجتياز اصدروبعل لجبال الألب بهدف نجدة شقيقه لم يزد الوضع إلا تدهوراً، بعد إنهزامه في معركة ميتور (Metaures) - يونيو- يوليو 207 ق.م - التي لقى فيها مصرعه[43]

أدرك حنبعل بعد معركة «ميتور» أن الأمر آل لروما، فتخلى عن «أبوليا» (Apulie) ولوكانيا (Lucanie) وغادر حتى ميتابونتم (Metapontum) وانسحب نحو البروتيوم (Bruttium)، حيث بقي أربع سنوات (4) أخرى دون أن يتجاسر أحد على اقتحام مكانه[44].

أما في اسبانيا فقد واصل سكيبيو (Publius Cornelius Scipio) الحرب، وتمكن سنة 206 من إلحاق الهزيمة بالقرطاجيين في إليبا (Ilipa)، ورغم محاولة ماقون إصلاح الوضع ومواصلة الحرب لكن أحد أعوان سكيبو وضع حداً لهذه المحاولة بعد احتلال قادس[45].

بعد الإنتصارات التي حققها سكيبيو في إسبانيا عاد إلى روما سنة 205 وانتخب قنصلاً، وبدأ يعد للحملة على إفريقيا[46]

نزل سكيبيو قرب أوتيكا (Utique) سنة 204 ق.م، وكانت انتصاراته وراء طلب قرطاجة من حنبعل العودة للدفاع عن وطنه، بعد أن شعرت بحاجتها لكل قواها[47].

نزل حنبعل في لمطة في صائفة 203 ق.م، ومنها توجه إلى حضرموت (Hadrumatum)، حيث أعد المدة للمعركة الفاصلة في زاما 19 أكتوبر 202[48]، حيث انهزم وفقد في المعركة أزيد من عشرين ألف (20.000) قتيل وعدد مماثل من الاسرى[49]. وبذلك وضعت الحرب البونية أوزارها، بعد أن كبلت قرطاجة بشروط معاهدة السلام 201 التي كرست التفوق الروماني. رغم الإصلاحات السياسية والمالية الكبرى التي قام بها حنبعل في قرطاجة، والتي كان

يستهدف من ورائها الاعداد للحرب من جديد، لكن روما طلبت من قرطاجة تسليم حنبعل لها سنة 195 ق.م، هذا الأخير الذي أسرع بالفرار إلى الشرق محاولا إثارته على روما، وهو ما جعل روما تنتظر دائما المفاجآت ما دام حنبعل حيا على ما يذكر كورنيليوس نيبوس[50]، لكن لامبالاة وقصر نظر ملوك الشرق منع مشاريعه الكبرى من التحقيق[51]، كما عاق الشيوخ البونيقيون مشاريعه في إيطاليا من الإنجاز[52].

الهوامش

(1) مدينة مورفيدرو (Muriredro) بإسبانيا حالياً، إلى الجنوب من نهر الايبرو، وبالتالي خارج النفوذ الروماني، على ما تقتضيه معاهدة 226 ق.م التي نصت على أن يكون نهر الايبرو حداً فاصلاً بين مناطق النفوذ القرطاجي والروماني، انظر:
Décret (F), Carthage ou l'empire de la mer, éd. Seuil, (Paris 1977), P.184

(2) يقول بوليبيوس (40, III) أن إجراءات إعلان الحرب اتخذت بعد عودة الوفد المبعوث إلى قرطاجة.

(3) يذكر قزال اتصالات تمت بين هؤلاء وحنبعل شتاء 219-218 ق.م. أنظر :
Gsell (S.); H.A.N.N., t.3, p. 145 N° I

(4) يرجع قزال اختيار حنبعل للطريق البري إلى عدة عوامل، منها: افتقاره إلى أسطول قادر على ضمان نقل جيش ضخم كجيش حنبعل، إضافة إلى عدم توفره في إيطاليا على منطقة أو مدينة ينزل بها، وبالتالي لم يبق أمامه غير الطريق البري، أنظر :
Gsell (S.); op.cit, pp. 144-145

(6) Poybius, III, 35; Titus livius, XX, 23, 3

(7) Polybius, Loc.cit

(8) CF Gsell, op.cit p. 152 Ibid

(9) الطريق التي سلكها حنبعل بعد الإيزير كانت محل جدل كبير بين المؤرخين حول مختلف الإحتمالات أنظر:
Berthelot (Ph), Annibal, dans la grande encyclopédie, T.3, pp. 71-72.

(10) يذكر تيتوس ليفيوس (XXI ، 38، 5) أن حنبعل فقد عند اجتيازه الألب ستة وثلاثين ألف (36.000) رجل وعدد هائل من الخيول والحيوانات الأخرى.

(11) Polybius, III, 56, Tite Live, XXI, 38, 5.

(12) Polybius, III, 65

(13) Polybius, III, 65; Gsell, op.cit, t.2, p.403 et t.3, p. 153.

(14) حول هذا الموضوع انظر قوال، المرجع السابق، ج 2 ص 140، 153.

(15) Polybius, III, 70.

(16) حوالي أربعين ألف (40.000) جندي، عن كل طرف، مع تفوق طفيف في الفرسان لصالح القرطاجيين وتفوق مماثل في المشاة لصالح الرومان.

(17) لم ينج في هذه المعركة غير عشرة آلاف من قواته المقدرة بحوالي أربعين ألف (40.000) جندي، بينما كانت خسائر حنبعل طفيفة على ما يذكر بوليبيوس Polybius, III 74, 2

(18) يذكر بيرتيلو (Berthelot) أن صدى المعركة كان كبيرا لدرجة أن الغاليين ثاروا وانضم إلى حنبعل أزيد من ستين ألفا من المشاة وأربعة آلاف من الفرسان. انظر المرجع السابق، ص 73.

(19) Gsell (S.); op.cit, T.3, p.154.

5 ـ نفسه.

(20) Cf. Cornelius Nepos, Vie d'Hannibal, XXIII, 4) ..

(21) Cf. Tite Live, XXII, 7, 2; Polybius, III, 84.

(22) يذكر بوليبيوس (، 84 ـ 85) أن حنبعل أمر تسعة آلاف (9.000) في ميدان المعركة وستة آلاف (6.000) في مواقع قريبة من ميدان المعركة. بينما لم يفقد غير ألف وخمسمائة رجل، خلافا لتيتوس لفيوس (3, 7, XXII) الذي يقول أن حنبعل فقد ألفين وخمسمائة رجل.

(23) Gsell (St.), H.A.A.N, T. 2, P. 155

(24) ID., T. 3, P. 155

(25) عرف بالمتأني ((Cunetator))، لأنه كان من أنصار الحرب الطويلة، التي تنهك العدو بطول المقاومة مع تجنب الإصطدام المباشر به، فيريد أن ينهك العدو بحرمانه من المؤونة، ويناوشه مناوشات خفيفة دون أن يعرض نفسه لأخطار كبرى.

(26) Gsell (St.) op.cit., T. 3, PP. 156-157.

(27) (Gsell (St.), op.cit, T.2, P. 155

(28) ID., T.3, P. 157

(29) Combet Farnoux (B.), les guerres puniques, éd. P.U.F. (Coll. que-sais-je), Paris 1960, PP. 85-86

(30) لم يشارك في هذه المعركة من طرف الرومان عشرة آلاف مقاتل كانوا مكلفين بحراسة المعسكر، كل الباقي أهلك، وعددهم سبعين ألفاً وقع بوليبيوس((117,113,III)) ضمنهم ألفين في المعسكر، كما أمر حنبعل 12000 أسير: 10.000 من المشاة من ضمنهم 8.000 في المعسكر.

(31) بوليبيوس، 117,III

(32) أحمد صفر، مدينة المغرب العربي في التاريخ، ص 218.

(33) انظر قزال، المرجع السابق، ج 2، ص 158. جوليان، المرجع السابق، ص 103.

(34) بوليبيوس، 118, III ؛ قزال، المرجع السابق، ج 2، ص 159.

(35) أنظر جوليان (شارل أندري)، المرجع السابق، ص 103.

(36) تعرضت «سرقوسة» لحصار دام عشرة أشهر. سقطت على اثرها في أيدي ماركيلوس (Marcellus)). رغما عن جميع الوسائل التي ابتكرها ارخميدس. أنظر قزال. المرجع السابق. ج 3. ص 165.

(37) Cf. Tite Live, XXVI, 16, 13

(38) Cf. Gsell, op.cite, T.3, P. 165

(39) Gsell, op.cit., PP. 159, 163, 165

(40) Berthelot (Ph.), op.cit, P. 76

(41) أنظر جوليان (شارل أندري)، المرجع السابق. ص 104.

(42) المكان السابق. أنظر أيضا كورنيليوس نيبوس. حياة حنبعل، 5, XXIII

(43) Cf. Gsell, op.cit, PP. 168-169

(44) Cf. Gsell, op.cit, P. 170

(45) Cf. Berthelot (Ph), op.cit, P. 76

(46) Cf. Winkler (A.), Bataille de Zama 19 Oct. 202 av. J., dans B.S.G.O. T.16, 1894 PP. 17-46

(47) Cf. Polybe, XV, I4, 9; Appien, Lib. 48: 25.000 tués, 8.500 prisonniers.

(48) كورنيليوس نيبوس، حياة حنبعل. 6-5, XXIII

(49) Cf. Berthelot (Ph.), op.cit, P. 77

(50) كورنيليوس نيبوس، المرجع السابق. 1, XXIII

ثانيا :
التاريخ الوسيط